



Journal of University Studies for inclusive Research (USRIJ)
مجلة الدراسات الجامعية للبحوث الشاملة

Journal of University Studies for inclusive Research
Vol.7 , Issue 4 (2022) , 3220- 3254
USRIJ Pvt. Ltd.,

مظاهر النشاط الاجتماعي في دمشق في العصر الأموي

الباحث

الشريف. يحيى بن حمزة الوزنة السليمانى

حاصل على درجة بروفيسور ودكتوراه قسم التاريخ الإسلامية

ماجستير في الادب الوسيط

كلية الشريعة - جامعة أم القرى

Dr. Yahya bin Hamza Al-Wazana Al-Sulaymani

Department of History and Islamic Civilization

College of Sharia – Omm Al-Qura University

Dr.yalwazna @hotmail.com

المقدمة

لقد امتاز العصر الأموي، بمظاهر حضارية في مجالات عدة منها السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والفنية، والإجتماعية ولقد تناولت دراستنا النشاط الاجتماعي، حيث أظهرت تطور القبائل العربية التي استقرت بالشام عقب الفتح الإسلامي، فظهر واضحاً في التقاليد والعادات الإجتماعية، وفي الفنون المعمارية، وفي الملابس، والطعام والشراب، كما ظهر أيضاً في الأعياد والمراسم والمواكب والحفلات ينقسمون إلى عدة طبقات أهمها العرب والموالي، والرحيق، والزواج، وكان الناس في العصر الأموي وأهل الزمة. ولقد ظهرت الحياة العامة فيها بمظهر يختلف عن عصر الراشدين حيث تشبه معظم الخلفاء الأمويين بقياصرة الروم، بمظهر الابهة في حياتهم الخاصة، فأخذوا قصوراً ومباني مزخرفة، وحدائق بالانوافير المائية. اما العامة في دمشق فقد تحضروا وخلدوا إلى الراحة فمالوا إلى الطرب والغناء عكس ما كانت عليه حياتهم في عصر الراشدين فقد كانوا يميلون إلى الزهد وسماع قصائد الشعراء وفي ختام الدراسة كان الحديث عن المرأة العربية المسلمة في دمشق وأثرها في المجتمع، فقد كانت بقسط وافر من الحرية، وكانوا النساء في دمشق يستمعن إلى خطب الخلفاء والفقهاء، ويدرسن الفقه والتفسير، والشعر وفنون الأدب. هذه دراسة متواضعة عن النشاط الاجتماعي والعصر الأموي

نسأل الله العلي القدير أن ينفعنا بها في الدارين وأن يغفر لنا ولوالدينا واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

ملخص:

تتناول الدراسة جوانب عدة من مظاهر النشاط الاجتماعي في دمشق في العصر الاموي من الناحية التطبيقية للمجتمع وتسلط الضوء على تغير العادات والتقاليد بعد العصر الاموي واختلافها عما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين وانعكاس الحالة الاقتصادية على بيوت العامة والحكام ومكانة المرأة الدمشقية وتأثر المرأة العربية بها في تلك الحقبة.

Abstract:

The study deals with several aspects of social activity in Damascus in the Omaoy era in terms of the class of society and sheds light on the change in customs and traditions after the Omaoy era and its difference from what it was in the time of AL Khulaffa AL Rasheadin and the reflection of the economic situation on the homes of the public and rulers and the status of the Damascene woman and the influence of Arab woman.

الكلمات المفتاحية: العصر الاموي، العادات والتقاليد، المرأة العربية الدمشقية، التنوع الاجتماعي.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

1- ماهي مكانة المرأة العربية الدمشقية الحرة في عصر الدولة الاموية؟

ذكر بعض من جوانب الاختلاف الذي كان بين العصر الأموي والخلفاء الراشدين في الحياة

2- الاجتماعية؟

3- عظمة الدولة الأموية وما حملته من مظاهر الأبهة على مختلف الأصعدة الاجتماعية؟

4- ذكر التنوع الاجتماعي الطبقي ودلالاته الاجتماعية؟

اهداف البحث:

توضيح تطور القبائل العربية التي استقرت بالشام عقب الفتح الإسلامي التقاليد والعادات والنقلة المعمارية ومدلولات الشرائح الاجتماعية وأهمها العرب والموالي، والرقيق، وأهل الزمة. توضيح الأفكار المغلوطة عما شاع في زمن الدولة الأموية من سفور المرأة العربية الدمشقية الحرة.

منهج البحث:

منهج تاريخي وصفي لدراسة الحالة الاجتماعية والتطور الذي حصل في العصر الأموي من الجانب الاجتماعي.

1- عناصر السكان وأثرها في الحياة الاجتماعية:

(أ) العرب:

حافظت القبائل العربية التي استقرت في منطقة دمشق عقب الفتح العربي على تقاليدها القبلية لفترة طويلة، وأدى اختلاط العرب في دمشق بغيرهم من عناصر السكان الأصليين إلى تأثرهم بالبيئة الجديدة التي عاشوا فيها⁽¹⁾ ويذكر هل⁽²⁾ أن عدد العرب في دمشق تزايد في العهد الأموي حتى بلغوا في عهد الوليد بن عبد الملك⁽³⁻⁴⁾ مائة وعشرين ألف نسمة. وهكذا، كان بعض العرب في دمشق، في العهد الأموي، يشتغلون بشؤون السياسة والحكم، على حين نجد فريقاً آخر منهم، ممن أقام في دمشق بعد الفتح، يمتلك الأراضي ويشغل بالزراعة⁽³⁾. وقد إلى بلاد الشام كثير من العرب الذين ينتمون إلى

قبائل مختلفة مع الجيوش الحربية التي فتحت تلك البلاد، كما هاجر إليها، بعض العرب وبخاصة من قيس وقريش⁽⁴⁾، واستقر بعضهم في منطقة دمشق. وقد كان يقيم في هذه المنطقة قبائل كلب وقضاعة إلى جانب قبائل أخرى من الأزد، مثل غسان وحمير وغيرهم⁽⁵⁾. وقد أكسبتهم الحروب المستمرة مع الروم خبره بشؤون الحرب، ومن ثم تفوقوا من هذه الناحية على سائر العرب⁽⁶⁾ انحاز الأمويون للعرب على الرغم من أن الدين الإسلامي قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة، حيث ورد في القرآن الكريم من الآيات البينات التي تجعل التقوى أساس الحكم بين المؤمنين (أن أكرمكم عند الله اتقاكم)⁽⁷⁾. وما أثر عن الرسول أنه قال: ((لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى))، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي. كما أن العصبية القبلية قد سادت منطقة دمشق خلال الحكم الأموي⁽⁸⁾ ، حيث كان العرب في تلك المنطقة ينقسمون إلى يمانية ومصرية ، وكان لها تأثير بالغ في حياة العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وقد أدى انحياز الخلفاء الأمويين لأحد الفريقين إلى بروز وإثارة العداء بينهما ، حيث ازداد نفوذ اليمانية في منطقة دمشق في عهد معاوية بن أبي سفيان (هـ-م) بعد أن تزوج من قبيلة كلب اليمانية . قد أدرك معاوية بثاقب نظره، منذ كان والياً على الشام، مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من مصاهرة قبيلية كلب، أقوى القبائل اليمانية بالشام وأكثرها عدداً، فأختار زوجاً له ميسون بنت بحدل الكلبية التي انجبت له ابنه يزيد على حين ضعف شأن قيس المصرية⁽⁹⁾. كما أن يزيد سار على سياسة أبيه في تقريب اليمانية والإعتماد عليهم، وكان كل جيشه الذي أرسله إلى الحجاز منهم⁽¹⁰⁾ وقد أدى انحياز الأمويين لليمانية إلى إثارة القيسية. وتجلى ذلك بعد وفاة معاوية الثاني (هـ-م)، ذلك أن زعيم قيس الضحاك بن قيس الفهري انحاز إلى جانب عبد الله بن الزبير، على حين حافظت اليمانية على ولائها للأمويين⁽¹¹⁾. ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة عمد إلى التخفيف من حدة العصبية بين اليمانية والقيسية فكان يجمع زعماءهم للتوفيق بينهم⁽¹²⁾.

كما أن الوليد بن عبد الملك لم يتعصب لقبائل قيس، لأنه لم يكن في حاجة إلى ذلك، حيث كان عند أهل الشام من أفضل خلفائهم (13). وحذا سليمان بن عبد الملك (هـ-م) حذو أخيه، فلم يظهر تعصباً لأحد الفريقين (14). ولما ولى عمر بن عبد العزيز (هـ-م) الخلافة، لم يتعصب لقبيلة دون أخرى، ولم يول والياً إلا لكفاءته وعدله. كذلك لم يظهر هشام بن عبد الملك (هـ-م) تعصباً لقبيلة دون أخرى، وإنما جعل نفسه فوق العصبية (15). ولما أستخلف الوليد بن يزيد (هـ-م) تعصب للمصريين، حيث أن أحد عمال الخليفة الوليد بن يزيد قتل خالداً القسري، وكان خالد من اليمانية وأم الوليد بن يزيد من المصرية، والعصبية بين القبيلتين على أشدها. فلما علم الوليد بمقتل خالد سر وفرح وتيقظت في نفسه العصبية المصرية وأظهر التشفي والشماتة وتجلى ذلك في قصيدة له قال فيها:

شددنا ملكنا بين نزار
وقومنا بهم من كان مالا
وهذا خالد أضحى قتيلاً
إلا منعه إن كانوا رجالاً!
ولكن المذلة ضععتهم
فلم يجدوا لذتهم مقالاً (16)

وهي قصيدة طويلة كان لها في نفوس اليمانية اسوأ الآثار فاجتمعوا من مدن الشام واتجهوا في جموع وفيرة إلى الخليفة في دمشق وخرج إليهم الوليد في جموع المصرية واقتتلوا قتالاً عنيفاً حاقت فيه الهزيمة بمصر وتحصن الوليد بقصره ولكنهم تسلقوا عليه القصر وقتلوه. وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة بتلك المأساة الأليمة فذهب ضحية لعصبية (17) التي تجلت في قصيدته (18). لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليماني، فكان ذلك مما حمل هذا العنصر على تدبير المؤامرات للتخلص منه (19). ثم خلفه يزيد بن الوليد فتعصب لليمانية، وأساء اليمانيون في عهده معاملة المصريين مما ترتب عليه قيامهم ببعض الثورات في كل من حمص وفلسطين (20). ولما ولى مروان بن محمد (هـ-م) الخلافة

تعصب للقيسية، فثار عليه اليمانية في دمشق وبعض مدن الشام الأخرى، غير أنه لم يلبث أن أحمدهم ثورتهم، كما قضى على ثورة اليمانية في فلسطين (21).

(ب) الموالى:

الموالى هم المسلمون من غير العرب (16)، وهم يشكلون عنصراً من عناصر المجتمع في دمشق وقد أخذ عددهم في الازدياد بعد أن انتقلت الخلافة إلى الأمويين نتيجة لتوالي الفتوح العربية. ولأسباب مختلفة أرادوا أن يكون لهم دور في المجتمع الإسلامي. على الرغم من السمة البارزة لعصبية بني أمية للعرب، حيث تجلى ذلك في معاملتهم للمسلمين من غير العرب، وهي معاملة كانت تختلف باختلاف كنه معاملتهم للعرب المسلمون، وأن تسمية "الموالى" تُشعر بسيادة العنصر العربي، وكانوا لا يسهون بين العربي وغير العربي في العطاء ولا في وظائف الدولة وينظرون إلى غير العرب نظرة احتقار وازدراء ممزوجة بالبغض والكراهية. (x) نقل معاوية بن أبي سفيان عدداً كبيراً من الفرس إلى المدن الساحلية بالشام. وقد استقر بعضهم في منطقة دمشق، واشتغلوا بزراعة أرض كان يمتلكها بعض العرب (17). وكان يوجد في مدينة دمشق في العهد الأموي درب يسمى درب الأعاجم (18). يقيم فيه موال من الفرس. كما كان يقيم في بعض القرى المحيطة بدمشق فريق من الموالى الخراسانيين يشتغلون بالزراعة والري (19). كان الأمويون يستنكفون من زواج العرب بالموالى ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى: وكان هذا المنع شائعاً قبل الإسلام. وعلى الرغم من أن الإسلام لم يمنع زواج الموالى بالعرب، فإنهم ظلوا يستنكفون منه (20). فرض عمر بن الخطاب العطاء للموالى، وجعله مساوياً لعطاء العرب (21). وظل الحال على ذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة... فجعل عطاء الموالى خمسة عشر ديناراً، ثم زاد عبد الملك بن مروان عطاءهم حتى صار عشرين ديناراً، ولما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك زاد عطاءهم خمسة دنانير، وجعل عمر بن عبد

العزیز عطاء الموالی كعطاء العرب ولما استخلف هشام بن عبد الملك جعل عطاء الموالی ثلاثین دیناراً (22). وكان للموالی أثر كبير في تغيير حياة أهل دمشق الاجتماعية وبخاصة في العصر الأموي، الذي زاد فيه عددهم زيادة كبيرة فامتزجت الدماء العربية بالدماء الأعجمية عن طريق الزيجات التي تمت بين العرب وغيرهم من الأمم المفتوحة. وترتب على هذه الزيجات نشوء جيل من التابعين ، خليط بين العرب والموالی ، وكانت صلتهم وثيقة بالحضارة الأجنبية ، فالموالی كانوا في معظمهم من أصل أجنبي ولذلك نقلوا كثيراً من ألوان الحضارة التي كان يجهلها العرب كالإدارة والأطعمة والأشربة والأبنية والفر ، وكثيراً من عاداتهم وتقاليدهم في الأفراح . (x) كان الأمويون يترفعون على الموالی في بادئ الأمر، ثم أفسحوا لهم المجال للقيام بأعمال متعلقة بشؤون الودلة وخاصة الأمور المالية فاتخذ، معاوية بن أبي سفيان بن سليمان بن سعد كاتباً له. كما أن حاجبه كان مولى يسمى صوان (23). كذلك اتخذ عبد الملك بن مروان أبا زعيزعه - وهو من الموالی - كاتباً لرسائله، وكان يتمتع بمنزلة كبيرة عنده (24). وكتب للوليد بن عبد الملك، صالح بن عبد الرحمن وهو من الموالی (25) وكان أبو عبيده - مولى سليمان ابن عبد الملك - حاجباً له (26). واتخذ عمر بن عبد العزيز مولى يسمى مزاحم حاجباً له وبلغ من ثقته فيه أنه كان يقول له: قد جعلتك عينا على، أن رأيت منى شيئاً، فعظني إليه (27)، وكان يكتب لهشام بن عبد الملك المولى سالم بن جبلة، وكان يعرف اليونانية، وترجم رسائل لأرسطو (28). كان من أشهر موالی دمشق في العهد الأموي مكحول الشامي، وأصله من بلاد السند، وتعلم بالعراق، يقول الزهري: العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري، بالبصرة ومكحول بدمشق. ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه (29). وبلغ من علو منزلته بدمشق أن يزيد بن عبد الملك، كان يحضر مجلسه (30). وكان من أشهر موالی دمشق عبد الحميد بن يحيى - وهو فارسي الأصل - وكان كاتباً مشهوراً، وبه يضرب المثل في البلاغة، حتى قيل: ((فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن

العميد)). وقد اتخذه مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - كاتباً له (31). (هـ) غير أنه تدريجياً، في العهد الأموي، تغيرت نظرة الأمويين إلى الموالي، حيث تساوى الموالي بالعرب في المعاملة في عهد عمر بن عبد العزيز (32)، بل نسب أمراء أمويون إلى بعض الموالي، فكان مسلمه بن هشام بن عبد الملك يكنى باسم مولى يدعى. أبا شاكر (33). كما لقب مروان بن محمد بالجعدى نسبة إلى الجعد بن درهم من موالي دمشق، وكان مؤدباً لمروان (34). في حقيقة الأمر، إن الموالي في دمشق طوال العهد الأموي ظلوا محرومين من بعض المناصب الكبرى التي تحتاج إلى شرف وعصبية كالقضاء، ولما أراد عمر بن عبد العزيز أن يولى مكحولاً القضاء، قال مكحول: ((لا يقضى بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى (35))).

(ج) الرقيق:

يشكل الأرقاء العنصر الثالث من عناصر المجتمع في دمشق، وقد تدفق الأرقاء في العصر، الذي نحن بصدده -دمشق خلال الفتوحات الإسلامية - عندما كانت دمشق منطلق الجيوش الإسلامية ومركز الفتوحات. فقد كان الأسرى في الحروب يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة الخمس منهم وكانوا يسمون "رقيق الخمس"، وتوزع الأربعة أخماس الأخرى على المقاتلين، حتى أن الرجل العربي كان يمتلك ما بين عشرة إلى مائة، فكان لخالد بن يزيد بن معاوية أربع مائة (36). واجتمع أكثر من ذلك لدى سليمان بن عبد الملك (37). كان الأرقاء يختلفون في أجناسهم وأشكالهم وألوانهم، ولم يكونوا جميعاً من الأسرى، بل كان يشتري من أسواق النخاسة، وكان العرب يشترونهم لزراعة الأرض أو للخدمة في دورهم (38). وقد تكاثر هذا النوع من الأسرى في دمشق في عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان، فقد أسر موسى بن نصير ثلاثمائة ألف أسير من أفريقية، أرسل خمسمهم إلى الوليد (39). وعاد موسى بن نصير إلى دمشق بعدد كبير من الأسرى الأندلسيين (40) وبلغ من كثرة رقيق الخمس في دمشق أن

سليمان بن عبد الملك أعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم (41). كما أن عبيد بن عبد الرحمن القيسي - والى أفريقيا من قبل هشام بن عبد الملك - قدم على الخليفة بدمشق ومعه من الغنائم أموال كثيرة وعشرون ألف عبد (42). كان هناك نوعان من الرقيق، هما الخصيان والجواري أما الخصيان فقد شاع استخدامهم في دمشق منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (43). وللخصاء أغراض أهمها استخدامهم في دور النساء غيرة عليهن. فلما شاع الحجاب بين المسلمين، استخدموا الخصيان في دورهم، عمد تجار الرقيق إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية (44). كما كان العرب في دمشق في العهد الأموي يشترون الجواري اللاتي يجدن الغناء بأسعار مرتفعة، فاشترى يزيد بن معاوية جارية بعشرة آلاف دينار (46)، كما اشترى يزيد بن عبد الملك، حبابه بعشرين ألف دينار (47). وكان بعض الناس يشترون الجواري ويعلمون الغناء ثم يبيعهن بأثمان باهظة (48). كان لبعض الجواري شأن كبير في قصر الخلافة بدمشق، نخص بالذكر منهن حبابه، وكانت تجيد الغناء والضرب بالعود، وبلغ من علو منزلتها - عند يزيد بن عبد الملك - أنها كانت تتدخل في توليه وعزل الولاة، ولما ماتت حزن عليها يزيد حزناً شديداً (49). وقد اتخذ عن العرب من جواريتهم سراري في دمشق في العهد الأموي، واتخاذهن أمهات أولاد لا يجوز بيعهن، كما كان أولاد الإماء يصحبون احراراً، غير أن مركزهم الإجتماعي كان أقل من مركز أولاد الحرائر. وعندما اشتهر عدد من أبناء السراري في العلم والفقهاء الورع شاع التسري بالإماء ومن ثم فإن بعض الأمويين كانوا يفضلون الإماء من غير العرب على العربيات الحرائر (51). وكانت السرية أقل منزلة من الزوجة (52). وهكذا، شكل الأرقاء في دمشق في العهد الأموي طبقة اجتماعية تميزهم، ومما زاد في تماسك هذه الطبقة أن أفرادها تزوجوا من نفس طبقتهم، الأمر الذي أدى إلى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم، وقد تعلم بعض أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الإسلام (53). ومن ثم فقد شارك الرقيق في جوانب الحياة المختلفة للمجتمع الإسلامي بصفة عامة وفي

دمشق، بصفة خاصة، مثلهم مثل الموالي في التأثير على الحياة الاجتماعية، وادخال انماط جديدة في مجالات المأكل والمشرب والملبس والفنون

(د) أهل الذمة:

لما فتح العرب المسلمون دمشق سنة 15هـ كتب أبو عبيده عامر بن الجراح إلى عمر ابن الخطاب يخبره بما حققه المسلمون من نصر مبين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب ((أقر بما أفاء الله عليك في أيدي أهله ، وأجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم ، تقسمها بين المسلمين ، ويكونون عماد الأرض ، فهم أصحابها وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تجعلهم فيناً ، وتقسمهم للصالح الذي جرى بينك وبينهم ، ولأخذك الجزية منهم ، بقدر طاقتهم ، فإذا أخذت منهم الجزية فلا شئ لك عليهم ، فأضرب عليهم الجزية وكف عنهم السبي ، وأمنع المسلمين من ظلمهم والأضرار بهم وأكل أموالهم إلا بخلها ، ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم⁽⁵⁴⁾ .)) وفي الحقيقة تمتع أهل الذمة في دمشق بالحرية الدينية، فقد تركهم العرب المسلمون أحراراً في عقائدهم على أن يؤديوا الجزية، وأبقوا الأرض في أيديهم يزرعونها، ويؤدون خراجها. وهكذا، كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم، فكانوا يؤدون الجزية كل بحسب قدرته، وكان يعفى من الجزية النساء والأطفال وذوو العاهات والرهبان إلا إذا كانوا أغنياء، وكان أهل الذمة من التجار يؤدون العشر عن متاجرهم. على أن فان لفوتن⁽⁵⁵⁾ يذهب إلى أن الجزية، التي كانت على أهل الذمة مجحفة، غير أن فون كريم⁽⁵⁶⁾ يرى أن الجزية التي فرضت عليهم لم تكن شيئاً مجحفاً. كما أن الجزية ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من إنشاءات وإصلاحات. في حقيقة الأمر نهى عمر بن الخطاب جباة الجزية في بلاد الشام عن تعذيب أهل الذمة لحملهم على أداء الجزية. وقال: ((من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه)) وبلغ من شدة تسامحه وعطفه عليهم أنه لما قدم إلى

الجابية سنة 18هـ رأى قوماً مجذمين من النصارى، فأمر بإعطائهم من الصدقات وإجراء القوت عليهم (57). وشكا إليه أهل الذمة في بلاد الشام ممن ينزل عليهم من المسلمين بقولهم يا أمير المؤمنين أن ضيوفنا من المسلمين يكلفونا ما لا نطيق فقال: ((لا تطعموهم إلا مما تأكلون (58))). فيما بعد أحسن الخلفاء الأمويون معاملة أهل الذمة في دمشق، حيث أمر عمر بن عبد العزيز بأن يجزى القوت من بيت المال على من كبرت سنه، وقلت مكاسبه من أهل الذمة (59). ولما استخلف يزيد بن الوليد ألقى في الناس خطاباً تعهد فيه بحسن معاملة أهل الذمة (60) وليس أدل على تسامح الأمويين مع أهل الذمة مما ذكره أحد كبار البطارقة: أن العرب الذين مكنهم الرب يعاملوننا على أنهم ليسوا أعداء النصرانية بل يحترمون ملتنا، ويوقرون قسيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (62). ولما رأى أهل الذمة في دمشق وغيرها من مدن الشام وفاء المسلمين لهم، وحسن مسيرتهم معهم، صاروا عوناً لهم على أعدائهم من الروم (61). وهكذا، لم يتدخل خلفاء بني أمية في شعائر أهل الذمة في دمشق، بل أطلقوا لهم الحرية الدينية، وحرصوا على ألا يتعرض أحد لهم بسوء، غير أن بعضهم، كعمر بن عبد العزيز فرض عليهم بعض القيود، فأمر ألا يركب نصراني سرجاً ولا يلبس قباءً ولا طيلساناً، ولا يمشى إلا مفروق الناصية (63). ويرجع السبب في فرض تلك القيود، على أهل الذمة، حتى يتسنى سهولة التمييز بينهم وبين المسلمين. ولم تكن هناك ثمة ضرورة عقب الفتح العربي لإلزام النصارى بلبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، إلا أن النصارى كانوا يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام (64). كذلك لم يتعرض الخلفاء لأديرة النصارى، في قرى دمشق، بل أبقوا عليها، ومن أشهرها. دير صليبا، وقد أتخذها خالد بن الوليد مقراً لقيادته إبان الفتح العربي. وخفف الخراج عن أهله لأنهم ساعدوه على دخول دمشق، ووافق أبو عبيدة عامر بن الجراح على ذلك (65)، ومن أديرة دمشق دير سمعان، والذي قضى عمر بن عبد العزيز

أيامه الأخيرة فيه⁽⁶⁶⁾، وأما دير مران، والذي يقع غير بعيد عن ظاهر دمشق، وعلى مرأى منه فوق أرض مرتفعة وسط أشجار الكروم والبساتين الزاهرة عند جبل قاسيون، وكانت مباني هذا الدير مزينة بالفسيفساء والمرمر النفيس⁽⁶⁷⁾ لقد استعان العرب بعد الفتح بكتاب من أهل الذمة للعمل في دواوين دمشق، فكان سرجون بن منصور الرومي كاتباً لخراج معاوية، كما كتب ليزيد بن معاوية وظل يلي كتابة خراج دمشق حتى نقل عبد الملك بن مروان الدواوين إلى العربية⁽⁶⁸⁾ لا يخفى ما الديوان في ذلك العهد من الأهمية في ضبط الحسابات والخراجات، التي هي قوام الدولة، زيادة عن كونها عنوان عظمتها لما فيها من الانتظام، ومن فوائد ذلك استخلاص أبناء الدولة المخلصين وأولى عصبيتها من العرب كوظائف الكتابة، ويشير إلى ذلك قول بعض كتاب الدولة من الروم لما نقل الديوان إلى اللغة العربية، فقال ذلك الكاتب لبني جلدته واخوان صناعته ما معناه اطلبوا معيشتكم في غير هذه الصنعة فقد خرجت من ايديكم وتقلدها غيركم. وعلى الرغم من أن عبد الملك بن مروان نقل الدواوين إلى العربية، إلا أنه هو ومن خلفه استعانوا بأهل الذمة في الدواوين، فكان لعبد الملك بن مروان كاتب نصراني يقال له شمعل⁽⁶⁹⁾، كما اتخذ عبد الملك مؤدباً نصرانياً لأخيه عبد العزيز يدعى ((أنثاسيوس⁽⁷⁰⁾)). وكان يكتب لسليمان بن عبد الملك رجل نصراني يقال له ((ابن بطريق)) أشار عليه ببناء مدينة الرملة⁽⁷¹⁾. كذلك كان لهشام بن الملك كاتب نصراني يسمى تاذرى بن أسطين قلده ديوان حمص⁽⁷²⁾. كما كان أطباء دمشق في العهد الأموي من أهل الذمة ومن أشهرهم بن أثال، والذي اختاره معاوية ليكون طبيباً خاصاً له، وكان يثق فيه⁽⁷³⁾. كذلك كان أبو الحكم النصراني من أشهر أطباء دمشق في العهد الأموي، وكان عالماً بأنواع العلاج والأدوية، وقد عمّر أبو الحكم طويلاً حتى تجاوز عمره مائة عام. ولما ولى معاوية ابنه يزيد أميراً على الحج وجه معه أبا الحكم ليكون طبيباً خاصاً له، كما اتخذ عبد الملك بن مروان فيما بعد طبيباً له⁽⁷⁴⁾. وهناك أطباء أهل الذمة الذين اشتهروا في ذلك

العهد، مثل ماسرجون اليهودي، وكان عالماً بالطب. وقد ترجم كتاب أهرن القس بن أعين في الطب في عهد مروان بن الحكم، ومما يجدر ذكره أن عمر بن عبد العزيز أخرج هذا الكتاب من خزائن الكبت لينتفع به المسلمون ومن تصانيف هذا الطبيب كتاب ((قوى العقاقير ومنافعها ومضارها⁽⁷⁵⁾)) ولما كان بعض أهل الذمة، في دمشق في العهد الأموي، يجيد دراسة علوم اليونان، مما قربهم الأمويون إليهم⁽⁷⁶⁾، حتى أصبحت دمشق مركزاً للنقل معارف مدرسة الإسكندرية. وينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية اهتمامه بعلوم الكيمياء والطب والنجوم، مما جعله يستعين براهب من دمشق يدعى مريانس في تصنيف كتبه⁽⁷⁷⁾. وهكذا حرص الخلفاء الأمويون على تحقيق العدالة لأهل الذمة، ورد حقوقهم المغتصبة إليهم، يؤيد ذلك أن معاوية بن أبي سفيان قد حبس خالد بن المهاجر، لأنه قتل بن أثال، وألزم بنى مخزوم رفع دية طبيبه، والتي كانت اثني عشر ألف درهم⁽⁷⁸⁾.

2- مظاهر الحياة العامة:

(أ) القصور والدور:

لقد تشبه الخلفاء الأمويون بأباطرة الروم في الظهور بمظهر الأبهة في حياتهم الخاصة ، فاتخذ معاوية قصرًا منيفًا سمي بالخضراء ، وقد شيد هذا القصر على نمط المباني ، التي شيّدت في العصر الروماني ، فأعاد معاوية بناه على أحسن صورة⁽⁷⁹⁾ ، حيث كان هذا القصر مزخرفاً بالذهب الوهاج والمرمر الناصع ، كما ازدانت جدرانه بالفسيفساء ، وأعمدته بالرخام ، وكما كانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، أما الغرف لقد طليت بماء الذهب ومرصعت بالجواهر الثمينة ، ولطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة⁽⁸⁰⁾ . كما شيد معاوية لزوجته ميسون قصرًا يشرف على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ثم أسكنها به مع وصائف لها، فكانت تجلس في روضة القصر وحولها الوصائف فتتنظر إلى الغوطة، وأشجارها، وتستمع إلى تجاوب الطير في أوكارها⁽⁸¹⁾.

وكذلك شيد الوليد بن عبد الملك قصرًا بناه بالحجارة وفي أروقته أعمدة فردى وأزواجا، ويحيط به الحدائق التي تحتوي على أنواع مختلفة من الأشجار، واتخذ سليمان بن عبد الملك قصرًا فخم البناء عند ميساة جبرون سمي بالصفراء⁽⁸²⁾. وكان لأم البنين زوجة الوليد من عبد الملك قصر بالفرديس⁽⁸³⁾. وفي الحقيقة تعتبر القصور التي اتخذها بنو أمية في الصحراء نموذجًا لقصورهم في دمشق، حيث كان من أشهر هذه القصور قصر المشتى، والذي يحتوي من الداخل على ثلاثة أروقة، ويؤدي مدخل القصر إلى فناء مكشوف ينسبط في وسطه حوض ماء إلى دهليز ينتهي إلى قاعة ذات ثلاثة محاريب مقببه وقد زينت واجهة الباب الخارجي لهذا القصر بالنقوش⁽⁸⁴⁾. كما كانت منازل الأغنياء في دمشق تتألف أحياناً من طابقين، حيث كانت تشتمل على أبهاء عديدة عن يمينها وشمالها أبواب عدة ذات ستائر كثيفة تفتح عند الضرورة. وكان الديوان وسائر الغرف تفرش في الشتاء بالطنافس الفاخرة، وفي الصيف بالحصر الغالية. وكانوا يستخدمون المواقد في الشتاء لتدفئة الغرف، أما في الصيف فكانت النافورات، التي حرص أهالي دمشق على إنشائها في بيوتهم، تساعد على تلطيف حرارة الجو⁽⁸⁵⁾. ولما كان أن نهر بردى يمد المدينة بما تحتاجه من الماء، فإن الأمويين أظهروا مهارة منقطعة النظير في تجهيز بيوت المدينة بما تحتاجه من الماء، وذلك بإقامة أحواض تنبثق منها المياه الصافية، كما أقاموا سبعة جداول تجري في أنحاء المدينة بالإضافة إلى المجارى العديدة، التي كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسي⁽⁸⁶⁾ لقد كانت حفلات الاستقبال، في قصور الخلفاء الأمويين، على نوعين عامة وخاصة، ففي الحفلات العامة كان الخليفة يجلس في صدر قاعة الاستقبال وعلى يمينه أمراء البيت الأموي، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال القصر، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأصحاب الحاجات وغيرهم⁽⁸⁷⁾. أما الحفلات الخاصة، فكانت تقتصر على أفراد البيت الأموي وكبار موظفي الدولة ورجال الخليفة المقربين إليه⁽⁸⁸⁾، وفي مثل تلك المناسبات

كان الخلفاء الأمويون يلبسون أفخر الثياب (89) . ومما يذكر أن الوليد بن يزيد كان يرتدى الملابس الحريرية الموشاة بالقصب والمرائل المصنوعة من الحرير والدمقس (90).

(ب) الأخلاق والعادات:

لما فتح العرب المسلمون دمشق انتقلوا بطباعهم وعاداتهم من البداوة إلى الحضارة (91)، وكانت الحضارة وما تقتضيه من شرف ورخاء تغالب المناقب التي تميزوا بها من قبل كالوفاء والكرم والنجدة والشجاعة. كما كان أهالي دمشق يحرصون على قضاء أوقات فراغهم في النزهة، ومن الأيام المفضلة عندهم كان يوم السبت، حيث يترك الناس أولادهم ينطلقون إلى المنتزهات يمرحون ويطربون، ولا يعودون إلى منازلهم إلا ليلاً (92).

وكان الأمويون في دمشق يعنون بتعليم أبنائهم الصفات الحميدة. ويتضح ذلك من توجيهات الخلفاء لمؤدبي أبنائهم، فقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده ((علمهم الصدق، كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة، فإنهم أقل الناس أدباً ... (93). كما قال سليمان بن عبد الملك لمؤدب ولده: ((قد وليتك تأديبه، فعلمه القرآن، وروه الأشعار، فإن الشعر ديوان العرب، وفهمه أيام الناس ... ولا تفتتر عنه ليلاً ولا نهاراً ... وأحمله على طلاقة الوجه وحسن المعشر، وكظم الغيظ، والوفاء بالعهد (94). كانت حفلات الزواج في دمشق يكثر فيها المرح والطرب وتقام فيها الولائم ، ويتضح لنا ذلك من وصف ابن قتيبة (95) لإحدى هذه الحفلات ، فقد دعى إليها أناس كثيرون ارتدوا ثياباً فاخرة ، واستقبل أهل العروسين الزوار ، وجلس الناس صفيين ، يأكلون ألواناً مختلفة من الطعام من حلو وحامض وحرار وبارد ، ثم شربوا شراباً حلواً في أقداح كبيرة وقام أربعة رجال ، فعزف أحدهم على العود ، واستخرج الثاني من كفه مزمراً أسود ، وعزف به أطيّب الألحان ، وكان الثالث معه مرآتان فجعل يضرب إحداهما على الأخرى ، وجعل الرابع يضحك الحاضرين ، وكانوا يلقون عليه وعلى زملائه الدراهم .

وقد أورد الأصفهاني⁽⁹⁶⁾ وصفاً لزوج أم حكيم من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك في حياة جده عبد الملك، جاء فيه أن القران عقد في مجلس عبد الملك الذي أمر بإدخال الشعراء ليهنئوهم بالعقد، واختير منهم جرير وعدى بن الرقاع، فدخلوا وهنا العروسين⁽⁹⁷⁾، فأجزل لهما عبد الملك العطاء، وأمر لكل من حضر من الحراس والكتاب بعشرة دنانير⁽⁹⁸⁾ استعمل الناس في دمشق في العهد الأموي الفوط والملاعق أثناء الطعام، وكانوا يجلسون على الكراسي أثناء تناولهم الطعام، وكان الطعام يقدم على موائد مكسوه مفارش من القماش⁽⁹⁹⁾. أما عن الملابس فقد اختلفت في عهد الراشدين والأمويين تبعاً لثروة الناس ومركزهم الاجتماعي، ونوع عملهم. ويذكر الجاحظ⁽¹⁰⁰⁾: إن لكل قوم زيا، فكانت ملابس الفقيه أو الكاتب تختلف عن ملابس الجندي، إذ كانوا يلبسون القمصان، التي تمتد إلى ما تحت الركبة فوق السراويل، بينما يلبس الفرسان ستر وسراويل ويضعون على رؤوسهم الخوذ. أما القضاة فيلبسون القلائس العظام كما كانت هناك ملابس خاصة بمجالس اللهو والطرب والمنادمة، وكذلك لمن يمارس الرياضة بل كان هناك ملابس للعقاب، فقد ألبس الوليد بن عباس جبة صوف بسبب اتهامه بقتل مولاه سليط⁽¹⁰¹⁾. وكان أبرز ملابس كبار العرب في دمشق في العهد الأموي تتكون من الحلل والقمصان والطيالسة والعمائم، بينما كان سكان دمشق، من غير العرب، يلبسون العباءات الفضفاضة وعلى رؤوسهم العقال أو الكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر⁽¹⁰²⁾. على أن الملابس في دمشق، في العهد الأموي، تميزت بالطراز الذي أخذوه عن الروم، حيث كانوا ينقشون أسماءهم أو علامات تميزهم على أثوابهم بخيوط من الذهب. وكان للخلفاء الأمويين دور خاصة لنسج أثوابهم تسمى دور الطراز. أما الولاة والعمال والجنود فكانوا يرتدون زيا طرز عليه اسم الخليفة⁽¹⁰³⁾. وكانوا يضعون فوق رؤوسهم العمائم، وتختلف تبعاً للسن والمركز الاجتماعي والعلمي وقد حافظ العرب على لبس العمائم وكانوا يقولون: ما زالت العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف⁽¹⁰⁴⁾. ويقول

الجاحظ⁽¹⁰⁵⁾: وللخلفاء عمه وللفقهاء عمه وللأبناء عمه وللروم والنصارى عمه. وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة⁽¹⁰⁶⁾ وتأنق الأمويون في ملابسهم، فكان معاوية يرتدى الملابس الديبكية⁽¹⁰⁷⁾ وفي عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشى الذي كان يجلب من اليمن أو الكوفة أو الإسكندرية واتخذ الناس منه أردية وجلاليب وسراويل وعمائم وقلانس. وبلغ من ولوع هذا الخليفة بالوشى أنه كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه إلا في الوشى⁽¹⁰⁸⁾. أما الخليفة عمر بن عبد العزيز، فكان يتبسّط في لباسه، وقومت ثيابه وهو يخطب في مسجد دمشق باثني عشر درهماً وكانت تتكون من قباء وعمامة ورداء وقميص ولنسوه وسروال وخفين⁽¹⁰⁹⁾. وكان لعمر بن عبد العزيز ثوب بمائة دينار، وكان يستخشنه، فلما ولى الخلافة كان يؤتى له بالثوب الخشن بأقل من دينار، فيقول: آتوني بأخشن منه وأقل ثمناً⁽¹¹⁰⁾. أما هشام بن عبد الملك فقد أدخل زي الخز، فأقتدى به، الناس⁽¹¹¹⁾. ويذكر صاحب العقد الفريد⁽¹¹²⁾: أنه لم يكن من خلفاء بني أمية ألبس ولا أعطر من هشام، خرج حاجاً، فحملت ثيابه على ستمائة جمل. أما ثياب المرأة العربية، في العهد الأموي، فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة، وعليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في فصل الشتاء، وإذا خرجت المرأة من بيتها ارتدت ملاء طويلة تغطي جسمها، وتقى ملابسها من التراب والطين، وتلف رأسها بمنديل⁽¹¹³⁾.

(ج) الموسيقى والغناء ووسائل التسلية:

كان العرب في دمشق، في عهد الراشدين، يقضون أوقات فراغهم في الاستماع إلى قصائد الشعراء، ولما تحضروا وأخذوا إلى الراحة والسكينة مالوا إلى الطرب والغناء، فكثرت المغنون والمغنيات من الموالي، الذين نبغ فريق منهم في الغناء، فوفدوا إلى دمشق، وغنوا بها ألحانهم⁽¹¹⁴⁾. كان معاوية بن أبي سفيان يعيب الناس الذين يميلون إلى استماع الغناء حتى أن ابنه يزيد كان يستمع إلى المغنين

خفية عنه (115). وكذلك الحال بالنسبة لعبد الملك بن مروان الذي كان يكره الغناء (116). أما الوليد بن عبد الملك فقد خالف أباه في ميله إلى الاستماع إلى الغناء، فبعث في طلب المغنين من مكة (117)، بينما كان سليمان ابن عبد الملك يكره الغناء (118). ويذكر الجاحظ (119): ((أن عمر بن عبد العزيز لم يستمع إلى حرف غناء منذ أن ولى الخلافة)). أما يزيد بن عبد الملك فقد كان رجل لهو ولعب ومن ثم فهو يميل إلى سماع الأغاني، ويقضى معظم أوقاته في الاستماع بضروب اللهو، وكانت عنده جاريتان تتقنان الغناء، هما سلامه وحبابه (120). غير أن الوليد بن يزيد فاق غيره من الخلفاء في تشجيع المغنين وتقريبهم إليه ، حتى أنه لم يجتمع على باب خليفة منهم ما اجتمع على بابيه ، وكان يجزل عليهم العطايا والصلوات (121) ، وبلغ من شدة ميل الوليد بن يزيد إلى الغناء ، أنه لما ولى الخلافة بعث في طلب المغنين من الأمصار الإسلامية ، ولم تغله ظهور الدعوة العباسية بخراسان عن الاجتماع بالمغنين ، فكتب إليه نصر بن سيار يطلب منه العون ، فتشاغل عنه ، وكتب إليه كتابا جاء فيه ((قد أقطعتك خراسان فاعمل لنفسك ، فأنى مشغول بآبن سريح ومعبد والغريض)) (122) ومن ثم فقد استاء الناس من انصراف الوليد بن يزيد عن شؤون الحكم إلى الغناء ، فكتب يزيد بن أبي مساحق السلمى مؤدب الوليد شعراً وبعث به إلى إحدى جواري الوليد ، فغنته (123) ، فرد إليه الوليد : ((أن فى ذلك صلاحى وفلاحى ورشادى)) (124). كان معظم الخلفاء الأمويين حين يستمعون إلى الغناء لا يظهرون أمام المغنين ، وإنما جرت العادة أن يكون بينهم وبين المغنين ستارة ، حتى لا يرى الندماء ما يفعله الخليفة إذا ما أعجبه الغناء ، وإذا ما اندفع صوت الجارية ، التي تغنى من خلف الستارة حذرها صاحب الستارة بقوله . حسبك يا جارية، كفى أقصرى (125). بلغ الاهتمام بالغناء في دمشق حداً كبيراً حتى أنه ظهر بها بيوت لسماع الغناء. وكانت القيان اللائى يحترفن الغناء من الجواري، وقد اشتهرت برج الأفق بجودة غنائها، مما جعل فتيمة دمشق يذهبون على بيتها ويستمعون

إلى غنائها⁽¹²⁶⁾. كما كان للخلفاء الأمويين ولع بالشعر والنوادر والقصص التاريخية والأخبار القديمة. وقد بلغ من حب معاوية لسير الأقدمين أنه استدعى عبيد بن شربه من اليمن - وهو من الإخباريين القدماء - ليسامره، ويقص عليه أخبار الأبطال الغابرين⁽¹²⁷⁾. وذكر المسعودي⁽¹²⁸⁾ أن معاوية كان ((يسمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيته... ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات)). وكما بعث الحجاج إلى عبد الملك بن مروان عامر الشعبي، حيث كان يقص عليه الحكايات والنوادر⁽¹²⁹⁾. كذلك حرص بعض خلفاء وأمراء بني أمية على قضاء أوقات فراغهم في لعب الشطرنج⁽¹³⁰⁾، وفي الصيد، وفي سباق الخيل. وكان يزيد بن معاوية من أكثر الخلفاء الأمويين ولعا بالصيد. فقد شغل به طوال مدة خلافته⁽¹³¹⁾، كما عرف بميله إلى سباق الخيل⁽¹³²⁾. وكان السباق أهم تسلية للناس في دمشق على اختلاف طبقاتهم، وقد اهتم بعض الخلفاء الأمويين بإقامته، حيث أمر سليمان بن عبد الملك الناس بأن يتسابقوا بالخيل، لكنه توفي قبل أن تجرى الحلبة - وهي ميدان السباق. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أبى أن يجريها، فقيل له: يا أمير المؤمنين تكلف الناس مؤونات عظيماً، وقادوها من بلاد بعيدة، وفي السباق غيظ للعدو، ولم يزالوا يكلمونه حتى أجرى الحلبة، وأجزل العطاء على الذين فازوا في السباق⁽¹³³⁾. وكان هشام بن عبد الملك، من أكثر الخلفاء، اهتماماً بإقامة حلبات السباق، حيث اشترك في السباق، في عهده، نحو أربعة آلاف من خيوله وخيول الأمراء، وقد عبر المسعودي⁽¹³⁴⁾، عن ذلك بقوله: ((لم يسبق هذا السباق مثيل)). وكان هشام بن عبد الملك يستجد الخيل للسباق، ويبذل في سبيلها الأموال، فاجتمع عنده أربعة آلاف فرس. هناك من يذكر أن ظهر، في أواخر عصر الدولة الأموية، ضعف قليل في الوازع الديني، بما

سلكه الأمراء من الانحراف عن تلك الحا المثلى، التي نهجها الخلفاء قبلهم وعقبوها ومخالفة تلك القوانين التي شرعوها اقتباساً من كتاب الله وكلام خاتم انبيائه عليه الصلاة والسلام، وبما تدرج الناس إليه الناس تبعاً لسلطانهم من مذاهب الحضارة وانغمسو فيه من أحوال الترف والبذخ. وقوى هذا الضعف تدريجياً حتى أصبح بعض خلفائهم ينهى عن مراجعته في أقل الأشياء، ويتوعد على ذلك بالقتل وبعضهم يتأوه من قول اتق الله، وبعضهم يخالف في احكامه الدين.

(د) المرأة العربية في دمشق وأثرها في المجتمع:

لقد تحسن وضع المرأة في العصر الإسلامي تحسناً كبيراً ، فقد كانت المرأة العربية في دمشق تتمتع بقسط وافر من الحرية ، ولم تظهر مشكلة الحجاب في عهد الراشدين لأن المسلمين والمسلمات كانوا يراعون تعاليم الدين ، وكذلك ثمة شواهد على أن العرب الذين تركوا مواطنهم الأصلية في شبه الجزيرة العربية وهاجروا إلى الأمصار ، ومنها دمشق ، واستقروا فيها انتهى الأمر بهم إلى اتباع عاداتهم فيما يتعلق بحجاب النساء والفصل بين الجنسين ، حيث كان انتقاب النساء الحرائر وسفور الجوارح عادة متبعة وعرفاً سائداً عند العرب ، بينما هناك من يذهب إلى أن الطابع الغالب على العصر الأموي سفور النساء واختلاط الجنسين ولكن ما كادت تبدأ الخلافة الأموية ، ويختلط العرب بأهل دمشق . وغيرهم حتى ظهرت مشكلة الحجاب، وفرضه على النساء الحرائر وكان الوليد بن يزيد أول من اتخذ نظام الحريم في قصره ⁽¹³⁵⁾. وكان النساء في دمشق يسمعن خطب الخلفاء والفقهاء، وتعلمن الفقه والتفسير، ويعلمن أولادهن، ولم تقتصر دراستهن على مطالعة المبادئ الشرعية والأحاديث النبوية بل درسن الشعر وفنون الأدب ⁽¹³⁶⁾. لقد اشتهر في دمشق، في العهد الأموي، عدد من النساء كان لهن مركز مرموق في المجتمع، وتأثير ملحوظ في سير الحوادث، فكانت أم الدرداء الصغيرة تلقى دروساً دينية في مسجد دمشق، وبلغ من علو مكانتها العلمية أن عبد الملك بن مروان كان يحضر مجلسها

وهو خليفة⁽¹³⁷⁾، بل كانت توجه النصائح الدينية له. ومما يجدر ذكره: ((أنها سمعته ذات مرة يقول لغلام له: لعنك الله، فنصحته ألا يقول لأحد: لعنك الله بقولها: سمعت أبا الدرداء يقول سمعت رسول الله يقول: لا يدخل الجنة لعان⁽¹³⁸⁾)). ومن أشهر نساء دمشق في العهد الأموي أم البنين، ابنة عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبد الملك، فقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر. وكان الوليد يستشيرها في مهام الأمور وهي التي دفعته إلى كثير من الأعمال الجليلة التي قام بها، ومن قبل أن يلي الخلافة كان عمها عبد الملك بن مروان لا يرد لها طلباً⁽¹³⁹⁾. كما استخدمت أم البنين نفوذها في خير الناس ورفاهيتهم، وقد روى أن الحجاج أشار على الوليد بالتخلص من نفوذها فطلبت من الخليفة أن يوعز إليه بمقابلتها، فلما مضى إليها أهملت شأنه. ثم أذنت له بمقابلتها وسألته عن النصيح الذي أسداه إلى الخليفة، فلم يجبه بشيء، فألقت عليه درساً بليغاً، وسردت عليه جميع أعماله، وصارحته بقولها: أنه هو الذي حرض أمير المؤمنين على ارتكاب تلك الأعمال القاسية التي ذهبت ضحيتها نخبة من أعظم المؤمنين شأنًا، وأبعدهم أثرًا، ثم أمرت وصيفتها بطرده من حضرته، فمضى إلى الوليد من فوره، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما سكنت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظاهرها، فضحك الوليد، وقال: أنها بنت عبد العزيز ابن مروان⁽¹⁴⁰⁾ ومن أشهر نساء بنى مروان، أيضاً، فاطمة بنت مروان، حيث كان الأمراء الأمويون يختصمون إليها في خلافاتهم، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة بدأ بأهل بيته، فأخذ ما كان في أيديهم، فطلب بنو أمية من فاطمة بنت مروان - عمة الخليفة - أن تسعى لديه لإعادة أموالهم إليهم، فأرسلت إليه وأتته ليلاً، فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها، طلبت إليه أن يعيد إلى بنى مروان أموالهم فقال لها: "أن الرسول ترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل على عمل صاحبه، فلما ولي عثمان اشتق من ذلك النهر نهراً، ولما تولى معاوية، فشق من النهر

أنهاراً ، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلى ، وقد يبس النهر الأعظم ، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه . فقالت له: قد أردت كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت هذه مقالتك فلست بذاكرة لك شيئاً أبداً. ورجعت إليهم وأبلغتهم كلام الخليفة (141). كما كانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، زوجة الوليد بن عبد الملك، من النساء اللاتي نبغن في الأدب وأيام العرب والنجوم (142)، وفدت إلى هشام بن عبد الملك، فبعث إلى شيوخ بنو أمية وقال: أن عائشة عندي فاسمروا عندي الليلة، فما تذكروا شيئاً عن أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فأمر لها هشام بمائة ألف درهم (143). كانت بعض المصاهرة، عند العرب، بمثابة التحالف، ومن فقد تزوج معاوية بن أبي سفيان من ميسون بنت بحدل الكلبية، مما علا شأن بني كلب في بلاد الشام، وظلوا على هذه الحال في عهد يزيد بن معاوية لأنهم أخواله (144). كما علت مكانة بني مخزوم في خلافة هشام بن الملك لأن أمه منهم، حيث كان يفضلهم في قضاء الحاجات، وزاد في عطائهم، بل كان ينسب إليهم أحياناً، إذ سمي باسم جده لأمه هشام بن إسماعيل المخزومي (145). وأيضاً كان يزيد بن عبد الملك كثيراً ما ينسب إلى أمه النابهة، فيسمى يزيد بن عاتكة (146) أما عن تقاليد الزواج في دمشق، فتدل على مدى ما تتمتع به المرأة من مركز ممتاز. وكان العرب يفضلون الزواج بقرشيات (147). وأن لم يتحقق فيتزوجون بعربيات. وقد جرت العادة أن يبدأ الزواج بالخطبة، وبعد مرحلة الخطبة تبدأ مرحلة دفع الصداق، الذي يختلف بحسب ثروة الزوجين ومكانتهما الاجتماعية، وعلى سبيل المثال نجد أن يزيد بن عبد الملك يتزوج من سعدة بنت عبد الله بن عمر بن عثمان على صداق قدره عشرين ألف دينار (148). غير أنه كان في استطاعة الشخص من أهل دمشق أن يتزوج بصداق يقل عن دينار. وكان العرب يؤدون الصداق نقداً أو عينا، ويقدمون بعض الهدايا العينية (149). وهكذا كانت حياتهم

الاجتماعية على هذا النمط إلى نهاية الدولة الأموية. صلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

حواشي

- (1) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 1 ص 118
- (2) الحضارة العربية ص 70
- (3) ابن عساکر: التاريخ الكبير ج 1 ص 243 - 244
- (4) ف.كاسكل:"الدور السياسي للبدو في التاريخ العربي"، تعريب وتعليق الدكتور منذر عبد الكريم البكر، الخليج العربي، جامعة البصرة، السنة السادسة عشر، المجلد عشرون، العدد 1، 1988م، ص 80-86
- (5) احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، 1973م، ص 238، ص 239
- (6) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج 1 ص 148
- (7) سورة الحجرات: 26، 12
- (8) احسان النص: العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، دار الفكر، دمشق، 1973م، ص 241
- (9) Lammens: Etudes Sur Le Regne Du Colife Mo, Awia, P. 7
- (10) تاريخ اليعقوبي: ج 2 ص 224
- (11) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج 5 ص 530 - 538
- (12) فلها وزن: تاريخ الدولة العربية ص 205

- (13) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية ص 92
- (14) فلها وزن: تاريخ الدولة العربية ص 253
- (15) فلها وزن: تاريخ الدولة العربية ص 270
- (16) الدينوري: الاخبار الطوال ص 333
- (17) محمد الطيب النجار: الدولة الأموية في الشرق، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1397هـ/1977م، ص 139-138
- (19) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 265
- (20) الدينوري: الأخبار الطوال ص 332
- (21) تاريخ اليعقوبي: ج 3 ص 76 - 77
- (16) Lammens. Le Callfat de Yazid Ier, P. 121
- (17) اليعقوبي: البلدان ص 330
- (18) ابن عساكر: التاريخ الكبير ج 1 ص 249
- (19) الشابستي: الديارات ص 137
- (20) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 1 ص 260
- (21) البلاذري: فتوح البلدان ص 462
- (22) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 3 ص 148
- (23) المسعودي: التنبيه والاشراف ص 261
- (24) البلاذري: انساب الأشراف ج 11 ص 195

(25) المسعودي: التنبيه والاشراف ص 174

(26) نفس المصدر ص 275

(27) الذهبي: تاريخ الإسلام ج 4 ص 53

(28) ابن النديم: الفهرست ص 117

(29) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 2 ص 116

(30) ابن كثير: البداية والنهاية ج 5 ص 299

كان ليزيد بن عبد الملك مولى خراسانى يتمتع بمنزلة كبيرة عنده، حتى أن أهل يزيد بن عبد الملك لما غضبوا منه بسبب ادمانه الشراب والاستماع إلى الغناء، ولم يستطيعوا اقناعه بالعدول عن ذلك، كلموا له هذا المولى، فاقبل على يزيد يعظه وينهاه عن انتهاكه لحرمت الله. (الأصفهاني: الأغاني ج 15 ص 130 - 131).

حواشي

(31) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج 1 ص 307

(32) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير ج 5 ص 277

(33) الأصفهاني: الأغاني ج 7 ص 3

(34) ابن كثير: البداية والنهاية ج 9 ص 350

(35) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 1 ص 261

(36) ابن كثير: البداية والنهاية ج 8 ص 8

(37) الأصفهاني: الأغاني ج 15 ص 34

(38) أحمد أمين: فجر الإسلام 91

نصح الإسلام بحسن معاملة الأرقاء والعمل على تحريرهم، قال تعالى ((وأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً)) (سورة النساء : 5 : 35) وللعنق أسباب كثيرة أهمها فى الإسلام إظهار العبد التقوى أو دخوله فى الإسلام أو فداء عن يمين أو وفاء بنذر أو التماسا للثواب أو شكراً لله على نعمة (المنذرى : الترغيب والترهيب ج 3 ص 61 - 63) . لم يكن العنق بقطع الصلة بين العبد وسيده بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى الولاء، فالمعتق مولى العاتق، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع دية عن مولاه إذا ارتكب جريمة قتل وإن يرث السيد معتقه، قال عمر بن عبد العزيز مولى العتاق يورث ولا يرث. (ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 3 ص 173).

(39) المقري: نفع الطي ج 1 ص 148

(40) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج 4 ص 248

(41) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 3 ص 125

(42) تاريخ اليعقوبي: ج 3 ص 59

(43) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 131

(44) زبدان: التمدن الإسلامى ج 5 ص 26

(45) كانت الجوارى تعتبر من أعظم الهدايا عند بنى أمية فمن أحب التقرب إلى أحدهم أهدها جارية اتقنت لونا يعلم أنه راغب فيه، يؤيد ذلك أن سعد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان زوجة يزيد بن عبد

الملك اشترت جارية تتقن الغناء - وكان يزيد يعجب بها - وأهدتها إليه، فعظم قدرها عنده (الأصفهاني: الأغاني ج 15 ص 124).

(46) الحسن عبد الله: آثار الأول ص 126

(47) الأصفهاني: الأغاني ج 8 ص 143

(48) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص 148

(49) المسعودي: مروج الذهب ج 2 ص 125

(50) قال عمر بن الخطاب بن السراري: ليس قوم أكيس من أولاد السراري لأنهم يجمعون عن العرب رهاء المعجم. (الكامل المبرد ج 2 ص 101).

(51) الجاحظ: البيان والتبيين ج 2 ص 48

حواشي

(52) كان بنو أمية يستنكفون أن يلي الخلافة أبناء أمهات الأولاد، فلما ولي يزيد بن الوليد الخلافة ظن الناس أن ملك بنو أمية سيزول، وكانت أمة ابنة يزيد جرد كسرى فارس، أسرت بخراسان وأرسلت إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد، وكان إبراهيم بن الوليد أمه بربرية. كما أن مروان بن محمد كانت أمه كردية. (ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 4 ص 151): (الأصفهاني: الأغاني ج 7 ص 171).

(53) الأصفهاني: الأغاني ج 7 ص 106

(54) أبو يوسف: الخراج ص 81

(55) الحضارة الإسلامية ص 83

- (56) السيادة العربية في 20
- (57) ابن عساكر: التاريخ الكبير ج 1 ص 179
- (58) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج 1 ص 197
- (59) البلاذري: أنساب الأشراف ج 7 ورقة 406
- (60) الجاحظ: البيان والتبيين ج 2 ص 70
- (61) أبو يوسف: الخراج ص 80
- (62) ترتون: أهل الذمة في الإسلامية
- (63) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز، ص 99
- (64) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص 125
- (65) البلاذري: فتوح البلدان ص 136
- (66) ابن فضل الله العمري: عجائب الأبصار في ممالك الأمصار ص 351
- (67) ابن فضل الله العمري: عجائب الأبصار في ممالك الأمصار ص 151
- Ency of Islam Art Dai Murrn**
- (68) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 15، 19
- (69) نفس المصدر: ص 24
- (70) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص 60
- (71) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص 30
- (72) نفس المصدر: ص 38

(73) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج 1 ص 116 - 117

(74) ابن القفطي: اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 123

(75) القفطي: اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 213

حواشي

(76) يرجع إلى القديس يحنا الدمشقي الفضل في نقل الفكر اليوناني إلى دمشق في العهد الأموي. وكان يلقب بدقاق الذهب لفصاحة لسانه، وكان يؤلف باللغة اليونانية، ويجيد الكلام بالعربية، وقد صنف يحنا عددا من روائع الكتب من أهمها كتاب ينبوع الحكمة الذي لخص فيه آراء المشاهير من المؤلفين الكنسيين الذين تقدموه. وكان لأقوال يحنا الدمشقي وتلميذه تيودور أثره في نشأة طائفة القدرية.

(كريم: الحضارة الإسلامية ص 72)

(77) ابن النديم: كتاب الفهرست ص 354

(78) الأصفهاني: كتاب الأغاني ج 16 ص 197

(79) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج 1 ص 243

(80) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص 169

(81) الدميري: حياة الحيوان الكبرى ص 435

(82) ابن كثير الدمشقي: البداية والنهاية ج 9 ص 177

(83) ابن عساكر: التاريخ الكبير ج 1 ص 199

(84) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج 1 ص 185 - 186

- (85) الاضطخري: المسالك والممالك ص 45
- (86) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص 167- 170
- (87) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج1 ص 581
- (88) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ج 1 ص 171
- (89) كانت الحفلات الخاصة في عهد هشام بن عبد الملك تقام في البهو الفسيح المبلط بالمرمر المشدود بالأسلاك المذهبة والمفروش بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب، وكان الخليفة يحضر تلك الحفلات الفاخرة مرتديا الملابس الحريرية الحمراء ومتطيبا بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيديه، فنفوح رائحته.
- (الأصفهاني: ج 6 ص 76).
- (م7 - الحواضر الإسلامية)
- (90) الأصفهاني: الأغاني ج 6 ص 233
- (91) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 1 ص 203
- (92) نعمان الفساطلي: الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ص 116
- (93) ابن قتيبة: عيون الخبار ج 3 ص 167
- (94) الدينوري: الأخبار الطوال ص 317
- (95) عيون الأخبار ج 9 ص 237- 238
- (96) كتاب الأغاني ج 16 ص 277

حواشي

- وقال عدي: قمر السماء وشمسها اجتماعا بالسعد ما غابا وما طلعا
ما وارت الاستار مثلهما من ذا رأى هذا ومن سمعا
- وقال جرير: جمع الأمير إليه أكرم حرة فى كل ما حال من الأحوال
هناكم بمودة ونصيحة وصدقت في نفسي لكم ومقالي
- (98) الأصفهاني: الأغاني ج 16 ص 277
- (99) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص 177
- (100) البيان والتبيين: ج 3 ص 60
- (101) الشابستي: الديارات ص 138
- (102) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص 176 - 177
- (103) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 1 ص 210
- (104) الجاحظ: البيان والتبيين ج 2 ص 43
- (105) البيان والتبيين ج 3 ص 60
- (106) الجاحظ: البيان والتبيين ج 3 ص 60
- (107) الثعالبي: لطائف المعارف ص 15
- (108) المسعودي: مروج الذهب ج 2 ص 216
- (109) البلاذري: أنساب الأشراف ج 7 ورقة 381
- (110) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج 1 ص 187

- (111) المسعودي: مروج الذهب ج2 ص 178
- (112) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 3 ص 177
- (113) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 545
- (114) الأصفهاني: الأغاني ج 1 ص 12 - 13
- (115) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 4 ص 212
- (116) قال عبد الملك بن مروان عن الغناء: ((قبح الله الغناء، ما أوضعه للمرؤه واجرحه للغرض،
وأهمه للشرف))
- (ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 4 ص 126).
- (117) الأصفهاني: الأغاني ج 1 ص 256
- (118) الكامل المبرد: ج 3 ص 99
- (119) الجاحظ: كتاب التاج ص 33
- (120) الأصفهاني: الأغاني ج 2 ص 272
- (121) المصدر السابق: ج 2 ص 274
- حواشي
- (122) الأصفهاني: الأغاني ج 7 ص 274
- (123) قال عدى:

وأصبحت المذمة للوليد
وخالف فهل ذى الرأى الرشيد

مشى الخلفاء بالأمر الحميد
تشاغل عن رعيته بلهو

(124) الأصفهاني: الأغاني ج 7 ص 69

لم ينكر الوليد بن يزيد ما يجر إليه الغناء من أسباب، فكتب إلى بنى أمية: ((ياكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة ويهدم المرأة فإن كنتم لا بد فاعليه، فجنبوه النساء، وأنى لأقول فيه على أنه أحب إلى من كل لذة وأشهى إلى من الماء البارد إلى ذي العلة، ولكن الحق أحق أن يقال))
(المصدر السابق ج 7 ص 70)

(125) الجاحظ: التاج ص 32 - 33

(126) الأصفهاني: الأغاني ج 3 ص 283

(127) P. 460،Hitti: History of the Arabs

(128) مروج الذهب ج 2 ص 51

(129) الأصفهاني: الأغاني ج 11 ص 21

(130) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج 5 ص 120

(131) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ص 39

(132) كان ليزيد بن معاوية فرد يسمى أبا قيس يسابق به الخيل يوم الحلبة على اتان وحشية، ويلبسه تباءا من حرير وقلنسوة من حرير.

(133) ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز ص 56

(134) مروج الذهب ج 2 ص 188 - 189

(135) المسعودي: مروج الذهب ج 2 ص 188 - 189

Kremer : Orient under the Caliphs, P. 171

(136) سيد أمير على: مركز المرأة في الإسلام ص 108

(137) ابن كثير: البداية والنهاية ج 9 ص 66

(138) نفس المصدر ج 1 ص 41

(139) المسعودي: مروج الذهب ج 2 ص 253

(140) المسعودي: مروج الذهب ج 2 ص 109 – 110

(141) الأصفهاني: الأغاني ج 9 ص 255-256

(142) نفس المصدر ج 11 ص 180

(143) نفس المصدر ج 11 ص 189 – 190

(144) فلها وزن: تاريخ الدولة العربية ص 126 – 127

Lammens : Le Califat de Yazid, P. 199

(145) البلاذري: أنساب الأشراف ج 11 ص 19

(146) فلها

وزن: تاريخ الدولة العربية ص 302

(147) الثعالبي: لطائف المعارف ص 51

(148) الأصفهاني: الأغاني ج 15 ص 124

(149) نفس المصدر ج 15 ص 125 – 126